الجولان والذاكرة الوطنية

أ.د. حسين جمعة*

تقديم:

الجولان[1] ليس مجرد هضبة وجبال وسهول ووديان تبلغ مساحتها (1860كم^2) وقد وقع تحت الاحتلال الصهيوني منها نحو (1254كم2)، ثم انسحبت قواته من مساحة (100كم^2) بموجب اتفاقية الفصل عام (1974م)... ولا هو مجرد مياه وأشجار، تزين طبيعتها وأضرحة وآثار؛ وكنائس ومساجد وعمران تغني تاريخها.. وليست مجرد قطعة من الأرض تمتاز بموقعها الجغرافي؛ وسجلها التاريخي الثريّ بالأحداث والانتصارات التي انعقدت على رايات الجيوش ولا سيما العربية الإسلامية... إنما هو ــ فوق ذلك كله ــ انتماء حضاري يجسد وحدة الانتماء الثقافي والفكري والسياسي لهوية عربية دمجت عناصرها البشرية والمعرفية، والفنية أياً كانت الأجناس والملل التي سكنتها أو عرفتها... فالجولان ــ أرضاً وموقعاً، تاريخاً وحضارة وشعباً ــ ينطق بمعناه الأصيل من خلال تجربة التفاعل الشعوري والعقلي، الذاتي والموضوعي؛ بوصف الإنسان فيه صانعاً للحياة، وكارهاً للصراع والقتل كما حدث لبعض البشر الموتورين من شذاذ الآفاق... وبوصف موقعه المتوسط بين سورية ولبنان وفلسطين والأردن صار بؤرة للصهر الحضاري الخلاق؛ والتسامح الاجتماعي النابض بالصلابة والوقار... وأياً كان التلاقح الفكري والسياسي والديني

---

* رئيس اتحاد كتّاب العرب- دمشق

[1] انظر الجولان (دراسة في الجغرافية الإقليمية) ــ ص11 وما بعدها ــ د. أديب سليمان باغ ــ اتحاد الكتاب العرب ــ دمشق 1983م.

والعرقي متفاوتاً أو متبايناً ــ منذ مملكة (حاصور)، في الجنوب الغربي من بانياس ــ ومملكة (كوميدي) في البقاع الجنوبي وشملت دمشق والجولان وحوران، إلى أن أصبحت في القرن الخامس قبل الميلاد ضمن النفوذ المصري... حتى عهد الغساسنة، والحضارة العربية الإسلامية[2] رأيناه في الجولان يندمج في صميم الرؤية الوطنية السورية التي عمقت مضمون الهوية الثقافية العربية الحضارية.. ولم يكن هذا كله من باب تحسين الصورة أو تزييف التاريخ؛ وإنما هو من باب الوقوف على الحقيقة الساطعة ذاتها. ولعل ما نقدمه ــ اليوم ــ ليس إلا صورة متواضعة أردناها أن تعبر عن ذلك، وتحمل عنوان (الجولان والذاكرة الوطنية)... وهي ذاكرة تعتز بمخاطبة العقل والوجدان شريطة الاحترام المتبادل بين صاحبها وكل من يتلقى كلامه...

وفي ضوء ما تقدم يمكننا أن نتناول مضامين ورقتنا في إطارين اثنين؛ الأول يتعلق بالمضمون الجمعي لتلك الذاكرة؛ والثاني يدور في المضمون الذاتي لكل مثقف ملتزم بهموم الوطن والأمة وقضاياهما؛ ومن لا يفكر لذاته ويحترم ما يصل إليه فإنه سوف يترك هذه الذات كريشة في مهب الريح لكل من هبَّ ودبَّ... ومن ثم لا يجوز لاختلاف الفكر والعقيدة والجنس بين البشر أن يكون مدعاة للانقضاض على الحقوق الفردية والجمعية؛ الذاتية والموضوعية؛ الوطنية والقومية...

الجولان والذاكرة الجمعية:

إن التطورات الكثيرة والمهمة التي تدور بين ظهرانينا تؤكد مرة بعد مرة قيمة الوطن وحقوقه، وفاعلية المواطن والتزامه بمفهوم الحق والواجب، أياً ما تكن الهواجس والمخاوف التي تنتابه وتراوده، أو أياً ما تكن المظالم والتغييرات التي تحاول أن تسلب منه الإرادة والقوة...

[2] انظر الآثار والمواقع الأثرية في الجولان ــ ص6 ــ 13 ــ جورج عيسى ــ اتحاد الكتاب العرب ــ دمشق 2012م.

ولعل أبرز ما يلامس ذلك كله ــ كما نرى ــ ما يتعلق باغتصاب جزء من الأرض أو فصله عن حضن الوطن الأم كما هي هضبة (الجولان) التي أضحت قضية تجسد رمز الصدق والإخلاص للانتماء الوطني الذي يمثل الذاكرة الجمعية النضالية المتمسكة بالحرية والسيادة الوطنية... إن مثل هذه الذاكرة ظلت وفيَّةً لذاتها ولم تتنازل عن حقوقها أياً كانت المحاولات القهرية واليائسة التي يمارسها العدو الصهيوني بحق الجولان المحتل ومن بقي على ترابه الأشم...

هكذا صمّم الكيان الصهيوني على تغييب كل المعايير الخلقية، وتجاوز كل المواثيق الدولية؛ وطمس كل الإرث التاريخي والحضاري لتراب الجولان فالمحتل الصهيوني يقوم منذ (45) سنة من احتلال الجولان في (5/ 6/ 1967م) بعملية تشويه، وتزوير ومسح للهوية الوطنية السورية؛ لأبنائه.. ويعمد إلى تغيير ديمغرافي منهجي لطمس ملامح الأرض العربية بعد أن اكتشف زيف ادّعاءاته؛ حين كذّبت المواقع الأثرية التي مارس التخريب فيها كل ما كان يؤمن به[3]. ولهذا أصدر في (14/ 12/ 1981م) قرار ضم الجولان وسماه (قانون الجولان) معتبراً أنه جزء لا يتجزأ من أرض [إسرائيل] وتسري عليه القوانين الصهيونية[4].....

ولكن السوريين تصدوا له حكومة وشعباً في المحافل الدولية وغيرها؛ وثار أبناء الجولان على القانون الزائف والجائر حتى أجبرت الجمعية العامة للأمم المتحدة على الاجتماع بعد ثلاثة أيام في (17/ 12/ 1981م) وأصدرت بعد يومين من المناقشة القرار (497) القاضي ببطلان القانون الصهيوني بحق الجولان، إذا لا شرعية قانونية له[5]، وصوت لصالحه (168) دولة وقد رفضته الدولة اللقيطة بالطبع.. ولم

[3] انظر المرجع السابق ــ ص95 ــ 154.

[4] انظر هضبة الجولان ــ ص52 ــ علي بدوان ــ اتحاد الكتاب العرب ــ دمشق 2004م.

[5] انظر المرجع السابق ــ ففيه نص القرار ــ ص52-53.

تلبث الجمعية العامة أن اجتمعت في (5/ 2/ 1982م) وأيدت قرارها السابق بقرار جديد صوت لصالحه (110) دول واعترض عليه (6) دول، وهذا نصه:

1ـ تدين الجمعية العامة للأمم المتحدة [إسرائيل] بشدة لعدم انصياعها لقرار مجلس الأمن الدولي رقم (497) الذي اتخذ عام (1981م) ولقرار الجمعية العامة رقم (226).

2ـ تعلن مرة أخرى أن قرار [إسرائيل] الذي اتخذته في (14 كانون الأول 1981م) بفرض قوانينها وقضائها وإدارتها على الجولان السوري المحتل يشكل عملاً عدوانياً طبقاً للبنود الواردة في الفقرة (29) من ميثاق الأمم المتحدة.

3ـ تعلن مرة أخرى أن قرار [إسرائيل] بفرض قوانينها وإدارتها على الجولان المحتل ملغى وباطل وليس شرعياً من الناحية القانونية وليس له أثر البتة.

4ـ كل أعمال [إسرائيل] في الجولان أعمال غير قانونية ويجب عدم الاعتراف بها.

5ـ اتفاقية لاهاي عام (1907م) واتفاقية جنيف لحماية المدنيين تنطبق على الأراضي السورية التي احتلتها إسرائيل عام (1967م).

6ـ أعمال [إسرائيل] في الجولان السوري المحتل تشكل تهديداً مستمراً للسلام والأمن الدوليين.

7ـ تستنكر الجمعية العامة (الفيتو) الأمريكي في مجلس الأمن الدولي حول هذا الموضوع.

8ـ تستنكر ـ أيضاً ـ أي دعم سياسي واقتصادي وعسكري وتقني إلى [إسرائيل].

9ـ إلغاء كل القوانين الإسرائيلية الخاصة بالجولان ولا سيما المؤرخ في (14 كانون الأول 1981م)

10ــ تؤكد ضرورة انسحاب [إسرائيل] بالكامل من الجولان المحتل ومن الأراضي الفلسطينية عام (1967) كلها بما في ذلك القدس. هذا شرط أساي لإقامة السلام العادل والشامل.

11ــ [إسرائيل] ليست عضواً محباً للسلام وغير منفذة للقرارات الدولية ولا سيما (272) لعام (1949).

12ــ تدعو الأعضاء كافة إلى ما يلي:

أــ الامتناع عن تزويد [إسرائيل] بأي أسلحة، وأجهزة، ووقف كل أنواع الدعم العسكري والمادي.

ب ــ وقف كل أنواع المساعدات ووقف التعاون معها.

ج ــ الامتناع عن حيازة أسلحة أو معدات عسكرية من [إسرائيل].

13ــ عزل [إسرائيل] في الميادين كلها.

14ــ تحث الدول كلها على الالتزام بهذه القرارات.

15ــ السكرتير العام مسؤول عن متابعة مدى تنفيذ هذا القرار، وملزم برفع تقرير إلى الجمعية العمومية في جلستها السابعة والثلاثين والتي ستعقد لبحث الوضع" انتهى النص.

وعقدت الجلسة المذكورة سابقاً، وصدرت قرارات عدة بعد ذلك تؤكد القرارات السابقة، وآخرها في (15/ 11/ 2011م) و (18/ 12/ 2012م) وكلها تطالب بتنفيذ القرار (497) والقرارات اللاحقة له.. ولكن دولة العدوان والبغي المدعومة غربياً وأمريكياً لم تنفذ أي بند مما تقدم؛ ولم يستطع الأمين أن يقوم بواجبه على الرغم من أن الجولان مثَّل توافقاً دولياً وإنسانياً على تحريره وإعادته إلى حضن الوطن الأم، وما زال يعيش ــ أيضاً ــ في الذاكرة الجمعية الإنسانية، بوصفه أضحى قضية إنسانية؛ وإن كان انتماؤه إلى الأرض السورية.

ولعل الممعن في قراءة قرارات المجتمع الدولي يدرك أن غالبية هذا المجتمع ترفض الغطاء الأمريكي البائس لدولة عنصرية غازية ومعتدية وسارقة للأرض والثقافة والتراث؛ وعاملة على اقتلاع السكان الأصليين من أملاكهم، ومدمرة لحقوقهم، فقد اقتلعت الدولة الصهيونية اللقيطة من الجولان ما يزيد على (120) ألف مواطن وجلبت مكانهم صهاينة من بقاع شتى ليستولوا على بيوتهم وأراضيهم... فالمحتل الصهيوني يرى أن الجولان أرض استراتيجية عسكرياً واقتصادياً وطبيعياً لدولته المزعومة، ولا يجوز له التخلي عنها... وهذا ينبثق من النظرة الصهيونية القديمة والثابتة... وكان (ديفيد بن غوريون) قد رسم حدود الدولة الصهيونية منذ عام (1918) حين قال: "إن هذه الحدود تضم النقب برمته والضفة الغربية والجليل وسنجق حوران وسنجق الكرك ومعان والعقبة وجزءاً من سنجق دمشق والأقضية القنيطرة ووادي عنجر وحاصبيا..."[6].

أما (المنظمة الصهيونية العالمية) فقد قَدَّمت مذكرة إلى المجلس الأعلى لمؤتمر (السلام) في باريس في (1919/2/2م) ومما جاء فيها: "جبل الشيخ هو أبو المياه الحقيقي بالنسبة لفلسطين لا يمكن فصله عنها دون إنزال ضربة جذرية بحياتها، فيجب أن يبقى تحت سيطرتنا"[7].

وقد جاء في رسالة وجهها زعيم الحركة الصهيونية ــ آنذاك ــ (حاييم وايزمن) إلى رئيس وزراء بريطانيا (لويد جورج) عشية انعقاد مؤتمر (سان ريمو ــ 1919/12/29م)، جاء فيها "في اللحظة التي توشك فيها أن تشترك مع زملائك في المفاوضات النهائية التي يتوقف عليها مصير فلسطين، تود المنظمة أن تتوجه إليكم بموضوع يسبب القلق لنا جميعاً هو مسألة الحدود الشمالية لفلسطين، والمنظمة الصهيونية ــ أصلاً ــ غير راضية أبداً باتفاقية سايكس ــ بيكو كأساس للمفاوضات،

[6] انظر المرجع السابق ــ ص49- 50.

[7] انظر المرجع السابق ــ ص50-52 فقد أثبت صاحبه أقوالاً أخرى.

لأن هذا الخط لا يقسم فلسطين التاريخية فحسب بل يقطع المياه عنها ويحرم [إسرائيل] حقوق الاستيطان في الجولان وحوران التي يعتمد عليها المخطط الصهيوني لإنجاح مشروعه ولا سيما مسألة المياه في الجولان".

ــ ومن ثمّ لا نستغرب بعد ذلك أن يحاول الصهاينة طمس الهوية العربية لأبناء الجولان الذين ما زالوا يتمسكون بأرضهم، وفرض هوية المستوطن الصهيوني المحتل عليهم؛ بيد أنهم رفضوها رفضاً باتاً ما جعلهم يعيشون في معتقل كبير، علماً أن عدداً غير قليل من أبنائهم زجوا في سجون الاحتلال ومعتقلاته... فإذا وجد بين أبناء العروبة من يبيع ويشتري كرامته وهويته وأرضه فإننا لم نجد بين أبناء شعبنا في الجولان المحتل من يهادن العدو الصهيوني، أو يرضى باسترجاع أرضه منقوصة؛ فهو يوقن بأن حقوق وطنه كلها مرهونة بعودة كل شبر من أرض الجولان إليه...

ثم إن أبناء الجولان فضحوا مخططات الاحتلال الصهيوني العنصرية قبل قانون الضم وبعده؛ وما زالوا يضحون من أجل الانعتاق من الأسر والقيد، والعودة إلى حضن الوطن الأم مهما لقوا من قمع وتعذيب وسجن، ومهما كان ثقل القيد وقوته الفولاذية؛ وأياً ما تكن الجدران العنصرية التي رفعت في وجههم، فقد آمنوا بأن الليل لن يطول، والسجن لن يغلق بابه عليهم إلى الأبد ولا بد للأرض المحتلة من عودتها لأصحابها آجلاً أم عاجلاً... وكل القوانين الصهيونية أياً كانت قوة من أصدرها أو من يدعمه فيها إنما هي لاغية وباطلة... ولن تكون عامل إحباط لهم ليتخلوا عن هويتهم وعروبتهم ونضالهم من أجل الحرية والتمسك بانتمائهم الوطني السوري.

وبناء على ما تقدم فالجولان لا يمثل ــ فقط ــ قلب سورية، ولا الرئة التي يتنفس بها السوريون من الجنوب والغرب ولكنه عين الحضارة الإنسانية التي ترنو أبداً إليه بمثل ما ترنو إلى بيت لحم؛ وكنيسة القيامة؛ ومهد السيد المسيح؛ وبيت المقدس، والصخرة المشرفة والمسجد العمري... ومسجد إبراهيم الخليل... ولذلك فإن كل سوري متمسك بالجولان؛ لا يتنازل عن شبر منه؛ ولا بد للمحتل الصهيوني أن

يخرج منه مذموماً مدحوراً، ويعود أدراجه إلى خط الرابع من حزيران لعام (1967م) وفق مبادئ الحق والعدل؛ والقانون الدولي. ما يؤكد أن الجولان غير خاضع للمساومة والتفاوض؛ وكل ما جرى على أرضه من إجراءات صهيونية باطلة، ولا تنتقص من سيادته الوطنية السورية وإن كان تحت الاحتلال البشع...

ثمّ إنه يشكّل ــ بما يثير من دلائل عدة؛ ومؤشرات شتى ــ صياغة الوجدان الجمعي والعقل الوطني الملتزم بالدفاع عن الذات والوجود وتحرير الأرض والإنسان.. فهو بما يحمله من خصائص حضارية، وقيم إنسانية لم يعد قاصراً في أبعاده على ما اختزن في الذاكرة الوطنية الجمعية حول انتمائه إلى روح الإباء والأصالة النضالية العربية، وإنما تجاوز ذلك إلى رمزية الدفاع عن قيم الحق والخير والجمال؛ ومواجهة كل أساليب القمع والإذلال؛ والقتل والدمار؛ والتهجير والاستيطان العنصري على حساب بني الإنسان... وهذا ما نفذت إليه قرارات الجمعية العامة للأمم المتحدة ومن ثمّ نتساءل: أين يقع المثقف من ذلك كلّه؟.

ــ الجولان والمثقف الملتزم

تبيّن لنا فيما سبق أن الجولان لم يعد مجرد ذكريات للمكان الجغرافي والتاريخي والطبيعي وما يوحيه في النفس من مشاعر وأفكار بوصفه قطعة أرض عزيزة على القلوب نال منها المحتل منذ نكسة (1967/6/5م)؛ فأصابها بالانكسار والألم والحزن الذي ظهر في الأدب الحزيراني الذي جمع بين الجولان وفلسطين وكل أرض عربية احتلت آنذاك. ثم حُرّر قسم كبير منه في حَرب تشرن الأول (1973/10/6م) لم يستثمر الاستثمار المناسب أو الكافي على أهمية ما أنتجته تلك الحرب من أدبٍ يتعلّق بالجولان أطلق عليه (أدب تشرين)، مثل كتاب (أدب الحرب) للدكتورة نجاح العطار؛ ورواية (أزاهير تشرين المدماة) لعبد السلام العجيلي؛ ورواية (المرصد) لحنا مينة أما الروائي الراحل فارس زرزور فقد سجّل معطيات شتى حول الجولان وبخاصة حين

استحضر (شجرة البطم) الوحيدة في تل العزيزيات... وغير ذلك من الإنتاج الأدبي الذي ارتبط تاريخياً وثقافياً، نفسياً واجتماعياً، وطنياً ونضالياً بالجولان حتى أطلق عليه (أدب الجولان) وضَمَّ كل ما قيل فيه أرضاً وشعباً... وكان يصدر عن تصورات وتحليلات شتى، فضلاً عن أنه اتّجه في كثير من معطياته الفنية والفكرية إلى قضايا توثيقية ذات قيمة كبرى؛ ولاسيما حين عبَّر عن شدّة المعاناة وأوجاعها في التشرّد وصور التدمير والخراب والقتل... فأدب الجولان تناول المكان بكل أبعاده وأسراره، وغاص في الذات الإنسانية والإبداعية إلى الأعماق مثيراً في النفوس الآمال العريضة في تحريره وإعادته إلى حضن الوطن الأم... فعلى أرض الجولان امتزجت الدماء العربية التي أكدت وحدة التراب والدم والمصير بمثل ما أكد الأدب الذي قيل فيه أنه يعيش في القلوب والضمائر... هكذا غدا ذاكرة إبداعية تعزز الانتماء وتنمي الإدارة الوطنية المقاومة لكل أشكال الاستلاب والظلم والقهر وتنشل كل مواطن من فضاءات الضجيج القاتل، وتحولات الواقع الافتراضية التي تستغرق الانفعال على حين تضيع الحقيقة... فالجولان فيما أصَّله من ذاكرة معرفية أثارية وفكرية وفنية ودينية ما فتئ يفجر القدرة الإبداعية عند الإنسان لكي يتمسك بمعنى الوجود الكريم والسامي وهو يصبو إلى الحرية؛ وتعزيز الأصالة والانتماء ما قوّى في دلالاته زيادة وتيرة فاعليته الاجتماعية والخلقية، بوصفه ذاكرة وطنية يجسد الكينونة المبدعة ذاتها.

وإذا كان سقوط التفاحة من شجرة التفاح قد ألهم (نيوتن) نظريته في الجاذبية الأرضية فإني ممن يرى أن الجولان هو من يحمل المثقف استلهام تلك المعاني بما يختزنه في ذاكرته من أبعاد ودلالات النهوض والارتقاء، فانتماء الجولان إلى الوطن الأم سورية كانتماء تلك التفاحة، أي إنه يعبر عن الحقيقة الوجودية الدائمة في الانجذاب إليه، وكشف مآلات التفكير للشخصية الوطنية، وثقافتها المرتبطة به وبجملة من القضايا الإنسانية المشابهة الأخرى.. ومن ثم لا يضيرنا إذا قلنا: إنه ــ وحده ــ يحدد مفهوم الثقافة الوطنية الإنسانية لكل مواطن سوري؛ ويبين مدى إخلاصه للانتماء

الثقافي العام وفق المقولة القائلة: قل لي كيف تفكر أو تشعر أقل لك من أنت، ما يثبت أن الثقافة المعرفية التي تتناول مسألة احتلال الجولان هي ثقافة أبعد ما تكون عن الإيديولوجيا الخالصة؛ أو الثقافة الافتراضية؛ أو الانتماء الضيّق؛ إنها ثقافة اجتماعية مقاومة ممتدة في الزمان والمكان؛ ثقافة الحضور الدائم بتجلياته الفاعلة وليست الثقافة الآنية والمتبدلة... ولعل هذا قبل غيره يحدد نوع الثقافة التي يتصف بها المرء عامة والمثقف خاصة؛ في الوقت الذي يصنف درجة ثقافته بين من يطلق عليه اسم المثقف أو اسم المثقف الطليعي أو العضوي؛ وبخاصة حين يتبيّن مدى التزامه بالهمّ الوطني والإنساني ويرفض الاستسلام للأمر الواقع، أو لحكايات الوهم والتدجيل، والتشويه؛ ولاسيما أن هناك من يذهلك في حديثه؛ وغنى بعض المقولات التي يطرحها بين يديك ــ والمرء مخبوء تحت لسانه ــ فإذا سألته عن مسألة وطنية كالجولان؛ أو لواء اسكندرونة تلجلج وتلعثم؛ وصمت صمت أهل الكهف، وعجز عن التعامل مع ثقافة الغائب... فإذا كابر وادعى المعرفة بتاريخ كل منهما وما آل إليه الاحتلال فيهما رأيته يسدُّ الخلل بخلل أكبر؛ فيسقط في حفر الوهم الثقافي. ومن ثمة لا يكفي المثقف إن كان خبيراً بكل مفاهيم العدالة الاجتماعية؛ ووظائف الديمقراطية؛ وفضاءات التعددية الحزبية والفكرية.... أن يكون قادراً على فهم قضاياه الوطنية والقومية، ما يعني إسقاط مقولة (المثقف ضمير مجتمعه) عنه... على حين أن المثقف العضوي أو الطليعي يظل على الدوام ــ وبخاصة في زمن الحرائق والأزمات ــ معبراً عن الإرادة الوطنية بما يحوزه من ذاكرة ثقافية واعية وأصيلة ومبدعة وملتزمة بالقضايا الكبرى والصغرى لمجتمعه. فمثل هذا المثقف والمبدع تنفتح ذاكرته على آفاق الاكتشاف والابتكار، والمبادرة الأرقى في الوقت الذي يبقى هذا المثقف متمسكاً بالحقيقة الوجودية لصيرورة الأوطان والأمم؛ ومقدرات الشعوب... وحيثما تنفتح ذاكرته الوطنية والقومية على ذلك يتجاوز السقوط في وهاد المغامرات القاتلة والانزلاقات المريضة؛ نفسياً وفكرياً، اجتماعياً وسياسياً ما يؤكد أن الوعي بقضية

الجولان؛ والتصميم على تحريره لا تحتاج إلى برهان، أو دليل... ولعل هـذا كلّـه يثبت أن أرض الجولان لم تخضع لعملية تطبيع مع العدو الصهيوني كما حصل فـي سيناء والضفة الغربية...؛ وما زال المثقفون وأبناء الأمة يعملون جاهـدين لمجـيء الفرصة المؤاتية لتحريرها... ومما يؤسف له أن عَدَم التفـريط بـأرض الجـولان، ورفض المساومة على أي شبر منه صار سهماً مقلوباً يرتـد أحيانـاً إلـى صـدور السوريين المناضلين... فالثبات على المبدأ وعدم الإقرار بمشروعية الاحتلال والإيمان بأن الاحتلال زائل، وسيرجع شذاذ الآفاق الصهاينة إلى حيث أتوا عاجلاً أم آجـلاً... كل ذلك صار مدعاة للتهكم أمام عمليات التطبيع التي جرت فـي (كامـب ديفيـد ــ 1979م) و(أوسلو ــ 1993م)، و(وادي عربة ــ 1994م) ــ مـثلاً ــ ومـا زالـت عمليات التطبيع مستمرة إلى زمن الربيع العربي الذي يقوده ــ على نحو ما ــ الباحث الصهيوني الفرنسي (هنري برنار ليفي)... وهنا تتجه عشرات الأسـئلة إلـى أولئـك المثقفين والكتّاب والأدباء الذين اصطفوا إلى جانب التشويه المتعمد للموقف السوري؛ حتى غشيت أبصارهم عن رؤية الحق والحقيقة، إذ راحوا يعيبون على سورية أنها لم تطلق طلقة واحدة نحو العدو منذ حرب تشرين (1973م)...

وإذا كان عدد من المثقفين لم يستوعبوا معادلة الصراع العربي/ الصهيوني بعـد تلك الاتفاقيات، وبعد العدوان الصهيوني على لبنان في (2006/7/12م) حين وصـف بعض المسؤولين العرب المقاومة بأنها مغامرة فعليهم أن يدركوا أن حركـة التـاريخ تظل دائماً لأصحاب الحقوق المشروعة؛ وما ضاع حق وراءه مطالب؛ وسيأتي اليـوم الذي تشرق فيه الحرية على رُبى الجولان؛ وذرا جبل الشيخ؛ وإذا كانت السياسة اليوم تستدعي حرباً من دون سفك دماء فستكون الحرب ــ يوماً ما ــ هي سياسة دماء، كما قال الزعيم الصيني (ماوتسي تونغ) ذات مرة في وصف السياسة.

من هنا تصبح قضية الجولان ــ لأي مثقف منتمٍ، وملتـزم بقـضايا الأمـة ــ قضية تعادل الوجود؛ ويصبح هو وأمثاله قادرين على قيادة المجتمع والتأثير فيه مـن

دون أن يسقط أي مثقف في وهج الإعلام ومطبّاته وإلا فإنه سيبقى مهمّشاً ومعـــزولاً وغير قادر على التخلّص من عقدة الذنب التي ترافقه وتؤنّبه... وذنب المثقف العـــالِم بألف ذنب من ذنوب غيره... ومن ثمّة لا يجوز له أن يقوم بأي نمط من التطبيع مـــع العدو، ولا أن يعمل لحسابه، ولا الابتسام في وجهه ولا القبول بقراراته؛ فكـــل ذلـــك خيانة عظمى... بل إن أي التواء للمثقف عن قضايا الوطن والأمة إنمـــا هـــو خيانـــة عظمى...

وفي ضوء ذلك كلّه يمكننا أن نحكم على أولئك المفكـــرين أو المثقفـــين الـــذين انحرفت عقولهم وحضروا مؤتمر (هرتزليا) في (30-1-2012/2م) أو أولئك الـــذين زاروا الضفة الغربية ويزورونها بصورة منتظمة تحت ذرائع شـــتى بـــأنهم مثقفـــون يعيشون خارج السياق الثقافي الوطني والقومي، وخارج سياق علاقة المحبة الـــصادقة للأهل والمكان؛ فعلاقة التوق إلى الجولان ــ ومن ثم إلى أرض فلـــسطين؛ بوصـــفها القضية الأم ــ هي علاقة وجود حُرّ وكريم؛ وميثاق قدسي؛ ورابط ثقـــافي حـــضاري أصيل وسامٍ؛ وليس مجرد توق إلى وطن جغرافي مليء بالذكريات ــ على أهميته ــ كما عرض لها عدد من الشعراء قديماً وحديثاً.

هذه هي الحساسية الوطنية الجديدة التي يغذّيها الجولان في النفوس ويرسّخها في العقول؛ حساسية تتجاوز اللعب بالعقول؛ والعواطف وتفضح أشكال المخادعة بـــالقول والفعل... حساسية تلتزم بكرامة الإنسان، وتعلي من معايير القيم الوطنية والنـــضالية، وتحارب كل مظاهر الاستلاب، والخوف والعجز... علـــيهم أن يتخـــذوا مـــن أبنـــاء الجولان أنموذجاً نضالياً في شنّ الحرب المستمرة على العدو حتى يعودوا إلى حيـــث كانوا في حضن الوطن الأم.